يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٦ اكتوبر . . .

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع فى أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة . . . ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات ومهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد ، ودلهم على مخابىء الأسلحة ، واقتفى معهم آثار المجرمين . إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » . تركناه ينصرف فى سلام . وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعه إلى الباب بصفعة على قفاه شق بها عليه ، وانصرف بعد ذلك كل منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت الى نفسى ، وأخرجت كراسة يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد من أفضى به اليه فى هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من تلقاء نفسه

كالطائر المرح ، وأحياناً يحرن ويثب على قدميه ويأبى أن يتقدم كأن فى طريقه أفعى رافعة الرأس . وهو الساعة يهتز فى يدى ويرقص ولا يطيعنى كأن شيئاً يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام . فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فاذا فأر أسود على رأسها واقفاً يقرض الخشب بأسنانه ؛ فجعلت أنظر إليه علّه يذهب ، فلم يذهب ؛ ومضت ساعة وهو فى مكانه وأنا فى مكانى ، كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لى لا يحفل بوجودى ، ولكنى أنا أحفل بوجوده . فزيارته فى هذه الساعة شغلتنى عن نفسى . وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجعلت أفكر فى هذا المخلوق الذى لا يفكر فىّ ، وهنا كل الفرق بينى وبينه ؛ وتركت هذا الفجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابى إلى سريرى وسدلت « الناموسية » علىّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمى العارية . ولم

أجد فائدة من « المصايد » فانها تكلفنى عناء فى إعدادها وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة . إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا . وفوق ذلك فلكم قنصنا من الغيران ، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجئ وتروح ؛ ولنحمها هذا الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا والله الحمد ليس لى حوائج يخشى عليها غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد الى بلد . فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة ؟ ونمت فى تلك الليلة بعد العشاء بقليل ، فان فى اليوم التالى جلسة القاضى السريع ، وقد كلفت مساعدى بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كى أمرنه على نظام الجلسات وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو فى انتظار القاضى . ولم يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه شمبان الحاجب ، وهما يشتدان فى الخطى والقاضى يخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصبح للبيض ياشمبان افندى ؛ والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة فى السلالى « كويس » وانتظرنى بها على المحطة فى قطر ١١ كالمعتاد . اطلع انت السوق والأفندى المحضر يقوم بدلك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعاً ، ودخل علينا القاضى وسلم فى عجلة قائلاً :

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا افندى يا محضر ! حضر الجلسة . . . الجلسة .

وألقى بمطفه النيل الأبيض السفرى على كرسى ، وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال . وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن فى أعقابه ، وصاح المحضر :

— محكمة ! !

ونظر القاضى فى « الرول » وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينق دودة القطن . . غيابى خمسون قرشاً . تهامى السيد عنيبه . . . لم يقدم ابنه للتطعيم . . غيابى خمسون . . . محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة . . غيابى خمسون والمصادرة . غيابى خمسون . . غيابى خمسون . . .

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء ، والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ؛ فمن لم يسمع النداء عد غائباً وحكم عليه غيابياً . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

— أنت يا رجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

— أصل الحكاية ياسعادة البك . . .

— ما عندناش وقت لسماع حكايات . . . حضورى خمسون . غيره . عبد الرحمن ابراهيم أبو أحمد . الخ الخ . . .

وانتهت المخالفات فى مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين

وهى تحتاج إلى شىء من الأناة ؛ فأخرج القاضى ساعته ووضعها أمامه ، وصاح فى المحضر :

— بسرعة ؛ القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت الى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

— ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة ... قل من عندك !

— ياسعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمة !

— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟

— لأ

فصاح القاضى فى المحضر :

— أنكر التهمة . هات الشاهد

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر فى « ملسها » الأسود الطويل ، فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :

— ضربك ؟

— أصله يا سيدى القاضى ربنا يخليك ...

— مفيش أصله . ضرب والا لأ ؟ هى كلمة لا غير

— ضرب

— كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود ... كلامك يا متهم

فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص الى أن فرغ . فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر الى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه

— شهر مع الشغل . غيره ...

— يا سعادة القاضى أنا عندى شُهَّاد . لا ضربت ولا بطحت . الحكم ظلم . ظلم يا ناس

— إخرس ! اسحبه يا عسكرى !

فسحبه العسكرى بعيدا . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضى :

— بددت القمح المحجوز عليه ؟

— القمح قمحى يا سعادة القاضى وأكلته أنا والعيال

— معترف . حضورى ، حبس شهر مع الشغل

— شهر ! يامسلمين ! القمح قمحى . زراعتى .. مالى ...

فسحبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين الى الحاضرين كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذى سمع حقيق . إن أذنه لاشك قد خانته ، وإن اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاء المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة ، ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه ؛ فمن ذا الذى يعده سارقا ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمرة غرسه . إن هذه الجرائم التى اخترعها القانون اختراعا ليحمى بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة والسرقة جريمة . لأن فى ذلك اعتداء

ظاهراً على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية . ولكن التبديد ... كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها . وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن « الدوسيه » فى يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ، ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ، ولم يخب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلىّ مرتبكا . فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض فى التأجيل

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى شبه همس :

— ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية انما هى قضية « معارضة » فى حكم غيابى سبق فيها . وينبغى أن تقدم المعارضة فى خلال أربعة أيام . فقرأ فى الحال التواريخ وصاح من فوره فى المتهم متنفساً الصعداء :

— القضية مرفوضة شكلا يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد

فلم يفهم الفلاح ذو « العيرى » هذا الكلام . وقال :

— والعمل إيه يا حضرة القاضى ؟

— العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . إحجزه يا عسكرى !

— الحبس بالزور يا حضرة القاضى ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

— إخرس ! معارضة يا رجل بعد الميعاد ؟

— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد أربعة أيام

— أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرأ ولا أكتب . ومن يفهمنى القانون ويقربنى المواعيد ؟

— يظهر انى طولت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . إحجزه يا عسكرى !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟ !

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترض فيه العلم بقانون « نابليون » ! !

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضاً وعاد الى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فان قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى إسراعه لم يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ؛ وتناول معطفه الأبيض ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف الى المحطة فى شبه ركض . وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه عسكرى يسحب مسجوناً والكاتب يصيح :

— القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة القاضى

فقلت له فى الحال :

— الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب

فصاح الكاتب فى العسكرى :

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطا فى السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . وهذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فان المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى فى « بوفيه » المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه ، بينما يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :

— اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبى أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية تشرح وجهة نظرها فى الاتهام . ولقد كان أعد لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ، فاذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار فى بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها فى طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذى سهر ليالى ليحشو به هذه الأوراق

وخلوت أخيراً فى مكتبى . ودخل على رئيس القلم الجنائى ببريد النيابة . وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح . وما كدنا نفض غلافا أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجرة وصوتا مدويا عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأل عن خبره ، فقيل لى : إن المركز أرسله اليوم مقبوضا عليه بعد أن حرر له محضر تشرد . فأدركت أن المأمور ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذى خطف البنت . وأن حقده عليه ما زال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الادارة ليوقع به . إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ . والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التى بين أيدينا . ولكن العجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التى مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة . إن هذه الوسيلة لم تعجبنى كثيراً ، ولم ترض ضميرى القضائى ؛ فان نصوص القانون لا ينبغى أن تكون أسلحة فى أيدينا نضرب بها من نريد ضربه فى الوقت الذى نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر فى طريق آخر لا يستطيع منه الافلات . هذا أسلوب الادارة الذى لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء ؛ وعزمت فى نفسى أن أفرج عن الرجل ، ولكنى أرجأت النظر فى أمره حتى أفرغ من « توريد البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى مظروفا

أصفر ضخما علمت أن فيه « قضايا جنايات » مرسلة إلينا من الرياسة لندرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنايات المنعقدة هذا الشهر فى عاصمة المديرية التى نعمل فى دائرتها . فألقيت نظرة على هـذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل هذا ؟ لاشىء ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات . فان من العسير على ذاكرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام قضاة ثلاثة عابسين ، ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على اب الموضوع ، بل على مدى اتقان الحركات والاشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الالقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح إلا للملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة ، لا أن يشاهدنى الناس ممثلاً بارعاً قد سلطت على وجهه الأضواء . إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب لبى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء . لذلك ما ترددت وأمرت باحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى تلك السن التى يبهر فيها الانسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب على أن أوجهه اليه . وإنى فوق ذلك أتيح له فرصة الاقامة أياماً فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هـذه الحجج ورأيتها كافية لاقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك مظروفا آخر صغيراً قرأت عليه بالحبر الأحمر كلمة «سرى» فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فاذا هو بلاغ من مجهول أرسل الى النائب العمومى رأساً فى القاهرة ، فأحاله على لأجراء اللازم فيه . فنشرته فى يدى وقرأته بامعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى على العجب ، وأطرقت لحظة أفكر ؛ ثم أعدت النظر فيه وتمهلت فى قراءة سطوره هذه :

« سعادة النائب العمومى بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود « بالاسبتالية البرى » كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتستر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة . واسألوا زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذى خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة ، وتضربون على أيدى الأشرار . « وتوضعون » العدل فى مجراه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) صدق الله العظيم » « فاعل خير »

(يتبع) توفيق الحكيم

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً